جهود المستشرق الفرنسي سونك في جمع وتدوين الشعر الشعبي المغاربي

د. عبد القادر فيطس
جامعة الجلفة

ملخص :

منهج المستشرق الفرنسي سونك في جمع و تدوين الشعر الشعبي المغاربي

يعالج هذا البحث ظاهرة جمع و تدوين الشعر الشعبي المغاربي في أواخر القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين من قبل المستشرق الفرنسي سونك و توضيح منهجه و مصادره في ذلك .

Abstract:

This research discusses the collected writings of nineteenth century French orientalist known as Sonneck. His studies of popular magrebin poetry at the end of the nineteenth century and the beginning of the twentieth century uncover his perception and epistemological positions which the present article finds interesting and worthy of serious discussion.

مقدمة :

ظاهـــرة المدونات الشعرية الشعبية التي جمعها ودوَّنـــها مستشرقــون فرنسيون أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، تستوجب محاولة الإلمام بها من حيث الدواعي والأسباب، وكيف كانت البدايات والاتجاهات، وما يستلزم ذلك من العلاقات المرتبطة بالتناقضات المتعلقة بالأهداف والنوايا في مجال قضايا الانتماء والهوية وتوابعهما بقصد أو بغير قصد ، لأن لا أحد ينكر أن الاحتلال الفرنسي تيقن أن الثقافة الشعبية بكل أشكالها التعبيرية هي الرصيد المعتمد في الاستكشاف العلمي للمجتمعات المغاربية خاصة المجتمع الجزائري بداية الاحتلال، وقام العسكريون والأنثروبولوجيون بتسجيلها من أفواه أهلها وتحليلها ودراستها عن طريق المناهج التي تيسر لهم إحكام سيطرتهم على هذه الشعوب. ولعل نصوص الأدب الشعبي هي أول ما استرعت اهتمامهم. ولهذا

ارتأيت أن أطرح موضوع منهج رجل الاستشراق الفرنسي في جمع وتدوين هذه النصوص الفنية. ولقد وقع اختياري على المستشرق الفرنسي سونك الذي أردت أن أبين تجربته و منهجه في جمع وتدوين الشعر الشعبي المغاربي من خلال كتابه " الديوان المغرب في أقوال عرب افريقية والمغرب" هذا الديوان الذي أخذ النصيب الأكبر فيه الشعر الشعبي الجزائري، واقترحت خطة البحث على النحـو الآتي :

- الاستشراق الفرنسي في الجزائر
- الأدب الشعبي و حظه من البحث العلمي الاستعماري
- ترجمة عن حياة وأعمال المستشرق سونك
- منهجه في الجمع والتدوين
- مصادره في الجمع والتدوين
- خاتمة: ملخص لأهم النتائج المتوصل إليها

الاستشراق الفرنسي في الجزائر :

منذ القرن التاسع عشر بدأ المستشرقون الفرنسيون الاهتمام بالتراث العربي اللغوي والأدبي على غرار مراسليهم من القناصل و التراجمة، فوجدوا أنفسهم في خضم المغامرة الاستعمارية التي كان بعضهم ضميرها الحي، حيث وفرت لهم إمكانيات إشباع ميولهم وتحقيق أحلامهم وبالتالي تحقيق أهداف الاستعمار، حينما عهد إلى بعضهم جمع المخطوطات العربية وتحقيقها ودراستها ، وترتيب المكتبات التي كانت تحت إشرافهم ، كما ذكر ذلك دانيال ريغ[1] في كتابه رجل الاستشراق، ابتداء من دعوة دوساسي[2] سنة 1817إلى عهد تنظيم المؤتمرات.

---

[1]- ينظر : دانيال ريغ، رجل الاستشراق، مسارات اللغة العربية في فرنسا.ترجمة ابراهيم صحراوي، دار التنوير، الجزائر، 2008م، ص: 102.

[2]- سلفستر دي ساسي، (1758-1838) كان في بداية حياته مهتما بالأدبين اليوناني واللاتيني، ثم درس اللغة العربية والعبرية والفارسية والتركية زيادة على إتقانه اللغة الفرنسية والألمانية والإسباينة والايطالية والانجليزية. وكان متظلعا في العربية وتاريخها وحضارتها و تراثها ، وهو كما قال عنه عبد الرحمان بدوي (شيخ المستشرقين

والاستشراق الفرنسي جزء من الاستشراق الغربي. لكن له خصوصيات يتميز بها، فقد يختلف في بعض الخصوصيات عن استشراق بعض الدول الأوروبية، تتعلق بعلاقة تشابك المصالح السياسية والثقافية والإيديولوجية، وتشابك التاريخ بالجغرافيا، والوسائل والغايات، انطلاقا من ترسبات تاريخية موغلة في القدم، وهذا ينعكس على البنى الفكرية للنسيج الثقافي الاستشراقي حسب المصالح و الأهداف ((إن خصوصية الاستشراق الفرنسي التي يتميز بها لا تعود لطبيعة بشرية عند الفرنسيين ينفردون بها عن غيرهم ولا تعود لموضوع استشراقي اختصوا به دون سواهم، ولا لعصر سادوا فيه غيرهم. لكن ذلك يعود لتاريخ وظروف خاصة مروا بها دون غيرهم وأثرت في تكوين شخصية فرنسا التاريخية المحتكة مع الإسلام دوما، وما اكتسبته من تجاربها معه، وما تميزت به في مراحل تكوينها تاريخيا وجغرافيا ودينيا وعسكريا))[1] فهذا الإرث التاريخي لم تستطع التخلص منه في واقعها الاستشراقي .

إن المستشرقين الذين خدموا الاستعمار كانوا يمثلون فئتين : الفئة الأولى هم المستشرقون الاستعماريون الميدانيون الذين أعلنوا تأسيسهم للاستعمار وخدموه بكل شيء وكانوا جنودا في صفوفه.

والفئة الثانية من المستشرقين الذين لم يكونوا استعماريين ميدانيين . لكن المهام التي أسندت إليهم و المعلومات التي قدموها خدمت الاستعمار، سواء كان ذلك بقصد أو بغير قصد كما ذكر ذلك ادوارد سعيد[2] في كتابه الاستشراق .

ولعل انعقاد المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين بالجزائر سنة 1905 م يمثل حلقة من حلقات التعاون الاستراتيجي القائم بين الاستعمار والاستشراق، وهو

الفرنسيين) ينظر: عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين،بيروت،لبنان ،ط1، 1984م، ص: 129.

[1]- الطيب بن ابراهيم، الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، دار المنابع ، الجزائر، 2004مّ ، ص : 52.

[2]- ينظر: ادوارد سعيد، الاستشراق، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 1991م، ص: 130 وما بعدها.

خطوة نوعية[1] يؤكد الدعم والتعاون والتكامل الاستراتيجي بينهما، ويكرس أفكار الاستعمار.

الأدب الشعبي وحظه من البحث العلمي الاستعماري :

يعتقد الباحث عبد الحميد بورايو أن الأدب الشعبي في عهد الاستعمار حظي ((باهتمام ضئيل إذا ما قورن بجوانب الحياة الشعبية الأخرى ، وما حظي منه بالاهتمام كان يرتبط ارتباطا مباشرا بالثقافة المادية واعتمده الباحثون الفرنسيون كمادة تصلح للكشف عن سلوك الإنسان الجزائري وردود أفعاله ، وأهملوا إهمالا تاما الطبيعة الفنية لهذا الأدب))[2] . فإذا كان المستشرقون الأوائل ينطلقون من خلفيات تاريخية في أبحاثهم، فإن الباحثين المستشرقين الذين جاءوا فيما بعد، أي بعد نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانوا يتميزون عن سابقيهم بوعي علمي بحكم انتسابهم لهيئات علمية ذات صبغة مدنية خلافا للعسكريين .

ومن الذيـن أنجزوا أعمالا في مجال الأدب الشعبي نذكر رونيه باسيط[3] الذي كتـب عن قصـة بنت الخـــص و المغازي، وألفرد بل[4] الذي كتب عن قصة الجازية، وجان ديسبارمي[5] الذي كتب عن المغازي وجمع بعض الأشعار الشعبية. فكانت هذه الأبحاث تفتقد إلى المنهجية وتتميز بالانطباعات والآراء

---

[1]- كل مؤتمرات المستشرقين إنعقدت في أوروبا إلا المؤتمر الرابع عشر انعقد بالجزائر (المستعمرة) أي خارج أوروبا، وهذا يكرس فكرة الجزائر فرنسية وقطعة جغرافية من فرنسا و امتداد طبيعي لها.

[2]–عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصبة، الجزائر، 2007م، ص: 15.

[3]- روني باسيط: مستشرق فرنسي عاش في القرن التاسع عشر اشتهر بكناباته عن القصص الشعبية

[4]- ألفرد بل : مستشرق فرنسي عاش في القرن التاسع عشر كتب عن القصص الشعبية منها قصة " الجازية " وكتابه الموسوم بـ : " الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي "

[5]- جان ديسبارمي : مستشرق فرنسي عاش في القرن التاسع عشر اشتهر بجمع الشعر الشعبي منها كتابه : " الفوائد في العوايد و العقائد" نشره عام 1905م.

العفوية، وفي مجال الشعر الشعبي فقد جمع المستشرق سونك مجموعة من القصائد الشعبية في مختلف الموضوعات والأغراض.

ترجمة عن حياة وأعمال سونك :

قسطنطين لويس سونك [1] CONSTANTIN LOUIS SONNECK مستشرق فرنسي عاش في قسنطينة (فترة الجزائر المستعمرة)، كان مديرا للمدرسة العليا الإسلامية الكتانية بقسنطينة، ثم أستاذا في مدرسة المستعمرات بباريس، كما عرّف بنفسه في مقدمة كتابه" الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقيا والمغرب " وقد قام بدراسة الشعر و اللهجة العامية لسكان شمال إفريقيا من خلال الأغاني العربية المغاربية، دراسة في اللهجة والشعر الشعبيين لشمال إفريقيا، وكتب هذه الدراسة سنة 1902، وجمع فيها ما كان يسمع من الشعراء والرواة والمداحين.

ففي أواخر القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين كان الشعر الشعبي يروى شفاهيا في المغرب العربي وشمال إفريقيا .

مع الإشارة إلى أن تاريخ ميلاده ووفاته غير معروف. ولم أجد معلومات عنه في معجم المستشرقين الفرنسيين ولا في معاجم الأعلام.

منهج سونك في الجمع والتدوين :

- من خلال الفهرس يعرفنا الباحث على موضوعات القصائد وعناوينها ويذكر اسم الشاعر والفترة التي عاش فيها، ويؤرخ - تارة - بالهجري وأخرى بالميلادي، وأحيانا لا يذكر اسم الشاعر بقصد أو بغير قصد، لأنه يجهله أو لا يريد ذكر اسمه لأسباب لا يذكرها و لا يعللها .
- التزم بالمكان فاختار الشعراء وقصائدهم من كل بلدان شمال إفريقيا. إلا أن الجزائر وجنوب تونس أخذتا النصيب الأكبر في الديوان .

---

[1]- ينظر: سونك، الديوان المغرب في أقوال عرب افريقية والمغرب، تقديم أحمد أمين، سلسلة الأنيس، طبع المؤسسة الوطنية للفنون، الجزائر، 1994م، ص: VIII

- لم يتقيد بالزمان ولكن يبدو أنه محصور من القرن السادس عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر، حيث اختار للشاعر الأخضر بن خلوف[1] من القرن السادس عشر، واختار للشاعر ابن مسايب[2] من القرن الثامن عشر إلى أن وصل إلى معاصريه في القرن التاسع عشر من أمثال بن قيطون[3] وبن يوسف[4] ومحمد بلخير[5] ..... وغيرهم . مع الإشارة إلى أنه نوَع في الأغراض والموضوعات الشعرية .
- افتتح الديوان بقصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وهو موضوع ثابت في القصيدة الشعبية ولازمة افتتاحية فيها. وهي للشاعر محمد الحداد من مدينة قسنطينة التي يعيش فيها سونك تيمنا بها و بأهلها . وهذه القصيدة تمثل أنموذجا من الزجل الشعبي [6] ((الشعر الشعبي بما فيه من

---

[1]- الأخضر بن خلوف: اسمه الأكحل بن عبد الله بن عيسى الشريف ولد في أواخر القرن الثامن الهجري بمقـراوة وعاش القرن التاسع عشر الهجـــري. له قصائد كثيرة في التوسل ومدح الرسول صلهم، جمع ديوانه محمد بن الحاج الغوثي بخوشة

[2]- ابن مسايب: ولد في القرن الثاني عشر الهجري وتوفى سنة 1768م، جمع ديوانه محمد بن الحاج الغوثي بخوشة.

[3]–بن قيطون : من مواليد قرية سيدي خالد(بسكرة) عاش ومات في القرن التاسع عشر، شعره متنوع الأغراض، صاحب مرثية حيزية، جمع ديوانه أحمد عاشور

[4]- ابن يوسف: شاعر من سيدي خالد (بسكرة) تاريخ ميلاده غير معروف، توفى سنة 1901م . معظـــم قصائده في التوسل و الزهد ومدح الأوليـــــاء و الصالحين، جمع بعض قصائده أحمد الأمين، وبعضها جمعها التلي بن الشيخ.

[5]- محمد بلخير: ولد عام 1820م بالواد المالح (البيض) توفى سنة 1904م أو 1906م. شعره ارتبط بالصوفي سيدي الشيخ الذي تنسب إليه الطريقة الشيخية المستوحاة من الشاذلية. شعره يزاوج بين النزعة الصوفية و النزعة الثورية، جمع ديوانه بوعلام بسايح.

[6]- يندرج الزجل ضمن الفنون الشعرية الشعبية في لغته العامية أو القريبة من الفصحى مثل المواليا و الكان وكان والقوما، والزجل في اللغة يعني الصوت وينقسم إلى قسمين: قسم يستخدم اللغة العامية، و القسم الآخر يزاوج بين اللغة الفصحى والعامية.

زجل وغيره قد لعب دورا في قيام هذا الشعر على التوازن الصوتي))[1] وهي أغنية خفيفة الإيقاع والوزن ، وجميلة الألفاظ والكلمات ومتنوعة القافية، والقصيدة موضوعها وصف الطبيعة.

- ثم يردف بمجموعة من القصائد في مدح الأولياء والصالحين. هذه الفئة غير العادية من البشر يتميزون عنهم بقدرات عجيبة تسمى الكرامة، اصطفتهم العناية الإلهية وخصتهم بأعمال من دون الناس، ولا نكاد نجدها عند الإنسان العادي، ودون أن يكون لهم في ذلك فضل أو إرادة، فقد يكون الولي الصالح عالما أو أميا، ذكيا أو غبيا ... وتلمح فيه الاعتباط الخاضع لقدرية ليس له فيها أية مسؤولية، ما يدفع الناس لقبول قدرته في إنتاج بعض الخوارق ((الكرامة ظهور أمر خارق للعادة على يد الولي مقرون بالطاعة والعرفان بلا دعوى بنبوة، وتكون للدلالة على صدقه وفضله أو لقوة يقين صاحبها أو غيره، وهي جائزة وواقعة عند أهل السنة (...) فهي جائزة بل واقعة حسبما نطق به النص القرآني والحديث النبوي))[2] والاعتقاد بقدرة الأولياء والصالحين على التصرف أحياء والتصديق بكرامتهم التي تقابل معجزات الرسل والأنبياء فكما لهؤلاء معجزات خارقة تدل على نبوتهم، فاللاولياء كرامات عجيبة تدل عليهم .
- ثم يتبعها بقصائد في الحكم والمواعظ والإرشاد باعتبارها نصائح تربوية وأخلاقية ودينية وتوجيهات دنيوية كالحث على الكرم والعفة والابتعاد عن الملذات والمفاسد وذم الزمان، وقد شاع هذا النوع من الشعر الذي ينتمي إلى باب الشعر الديني، وانطلاقا من مقياس الحركة والفعل والنجاح، فإن هذه المقومات استمدت البيئة المغاربية قيمها بما قدمته من إنتاج شعري في هذا

---

[1]- محمد العمري، **الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية و الممارسة الشعرية**، دار افريقيا الشرق، المغرب، 2001م، ص: 168.

[2]- محمد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية و الممارسة الشعرية، دار افريقيا الشرق، المغرب، 2001م، ص: 168.

الغرض، وهذا مهّد لانتشار إنتاج غزير حول شعر الحكم والمواعظ والإرشاد والنصائح الداعية للأخلاق . فهذه القضايا ((هيئة في النفس راسخة عنها، تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا))[1] فترسيخ هذه القيم الفاضلة الصادرة بفعل الإلزام داخل المجتمع منوطة بالشاعر الشعبي الذي يضعها في قوالب نظمية، لأنه يمثل سلطــة نافــذة لها مفعولها في التأثير على الناس والمجتمع .

- ثم يتنقل من النقيض إلى النقيض، أو لنقل من الجد إلى الهزل، فيأتي لنا بخمس زجليات تتناول السكر(الشرب) والنديم ويطلق على تسميتها بالخمريات.

الزجلية الأولى تعبر عن الشكوى ومزيج من المديح والدعاء، وباقي الزجليات (الخمريات) يطغى عليها وصف الطبيعة، ويلاحظ أن هذه القصائد ضعيفة فنيا، وأن أصحابها من سكان المدن التي كانت تعج بمجالس اللهو والغناء والمجون.

- بعدها اهتم بشعر الغزل واختار مجموعة من القصائد الطوال في الغزل لشعراء مشهورين مثل ابن مسايـــب

وابن تريكي[2] وابن سهلة[3] وابن يوسف، وقصيدة أخرى مزيج بين الغزل والسياسة للشاعر محمد بلخير. وقد أورد الباحث نماذجا شعرية من الغزل الذي يطغى عليه الوصف الحسي مثل قصيدة " أصادني ماصادها" لشاعر

---

[1]- محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي، موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، الجزء الثاني، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر، د ت، ص: 190.

[2] – بن تريكي: يلقب بالزنقلي ولد في أواسط القرن الحادي عشر هجري بتلمسان وتوفى بها في أوائل القرن الثاني عشر هجري. جمع ديوانه عبد الحق زريوح

[3]- بن سهلة: ولد ونشأة بتلمسان، عاش في أواخر القرن الحادي عشر هجري وأوائل القرن الثاني عشر هجري جمع ديوانه محمد عمر الزرهوني.

مجهول تحمل رقم 54 في الديوان، وأنموذج آخر يمدح فيه الشاعر فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، واصفا محاسنها في القصيدة التي تحمل رقم 14 في الديوان، وفيها وصف حسي نابع من البيئة الحسية للشاعر رغم أن هذا الوصف لا يلائم إمرأة مثل فاطمة الزهراء، عاشت في شظف العيش وفي ظروف صعبة. إلا أن هذا الوصف هدفه الاستئناس بذكرها وطمعه في شفاعة والدها الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أنه من خلالها يعبر عن حب الشاعر لآل البيت وتعلقه بهم.

وهناك غزل من نوع آخر لا يتحدث فيه الشاعر عن مفاتن المرأة ولا يرسم لها تمثالا وإنما يلتفت إلى نفسه

فيتحدث عن آلامه، فيشكو ويتضرع ...مثل قصيدة " كيف عملي وحيلتي" التي رقمها 31 في الديوان

وقصيدة أحمد بن تريكي التي رقمها 33 في الديوان، الموسومة بـ: طال عذابي.

- اختار الباحث بعض المراثي أشهرها قصيدة "حيزية" المدونة تحت رقم 41 التي عنوانها " عزوني يا ملاح" وهذه القصيدة من أطول القصائد في الديوان ، وهو أول من دونها من كراس أحد الهواة في جمع الشعر الشعبي.
- لم ينس الباحث الشعر السياسي وأورد مجموعة من القصائد في هذا الغرض لشعراء مغمورين أو مجهولين، وله مقصد في ذلك، إما أن يجتنب متابعة العسكر الفرنسي للشاعر ولا يريد أن يكون سببا في ذلك، وإما خوفا عليه من تبعات ذلك، مثل القصيدة رقم 53 في الديوان التي عنوانها " راني في جبل قرصة عالبين"،

والقصيدة رقم 39 التي عنوانها " ياحمام القصور" قول أحد الشعراء يشكو حاله في جزيرة كاليدونيا سنة1895م، فالأول أراد الباحث أن لا يعرض الشاعر لمطاردة العسكر الفرنسي، والثانية تنطق بما يعانيه الشاعر في المنفى

والعذاب داخل السجن مع الأشغال الشاقة، ويشكو عذاباته وتشوقه لأصله و وطنه، فلم تكن للباحث حساسية اتجاه الشعر السياسي.

- اهتم الباحث بجمع الأغاني والأهازيج الشعبية التي تردد في الأفراح أوالأتراح، وهذه القصائد المتداولة تغنى في المناسبات كالأعراس والختانة وأغاني الطفولة وعند ولادة الولد (الذكر)، وأغاني العمل التي تغنى في مواسم الحرث والزرع أو الحصاد وتلقيح النخل، وما يغنيه البحرية أثناء الصيد.
- أورد بعض أشعار النساء في المراثي، رثاء الأزواج أو الآباء أو الأولاد.
- ذكر قصيدة طويلة في الأمثال نقلها من كتاب " نظم الجواهر في سلك البصاير" لأبي عبد الله مسلم بن عبد القادر العامري[1].
- الديوان يحتوي على 234 صفحة متوسطة الحجم وبعد طبعه وتقديمه من قبل الباحث أحمد أمين عن دار المؤسسة الوطنية للفنون "موفم" للنشر سنة 1994، أصبح الكتاب في 406 صفحة من الحجم الصغير.
- القصائد التي جمعها من شعراء شمال إفريقيا معظمها من الجزائر ثم تونس فالمغرب وليبيا.....
- الباحث لم يحقق في أصل بعض الشعراء و انما أخذها من هواة في جمع الشعر الشعبي لذلك نجده يقول مثلا " محمد بن قيطون[2] بن سيدي خالد،

---

[1]- كان يعمل خوجا الآغا المزاري أحد آغاوات مخزن الترك بوهران، ثم انتقل بمثل وظيفته إلى خدمة الباي حسن، وارتقى إلى مرتبة باش كاتب، وبعد دخول فرنسا وهران، ارتحل إلى معسكر ومات بها سنة 1832م، وكان مسلم أديبا وشاعرا ومولعا بالشعر، و أغلب أشعاره في التصوف، جمع بعض قصائده في الكتاب المذكور وجمع الباقي محمود بن الطاهر بن حوة في كتاب " زهر الآداب في جمع شعر أفاضل الكتاب" و أما هذه الأمثال فشرحها محمد أبو راس الناصري المعسكري في تأليفه الموسوم بـ : " كشف النقاب ورفع الحجاب عن أمثال سايرة وحكم باهرة " .

[2]- ينظر: سونك، الديوان، مصدر سابق، ص: 147.

ونقل ذلك من الشاعر بن يوسف فقال : قول يوسف[1] بن أمحمد الفصيح المشهور في أيامنا من زيبان بسكرة.

- الديوان مكتوب بالخط النسخي المغربي حيث يلاحظ كتابه حرف القاف والفاء كما يلي :

ق ←——— ف - ف ←——— ب

- يبدو أن الباحث له اعتقاد ديني يضمره أو له عاطفة دينية صادقة اتجاه المسلمين، ويستشف ذلك من خلال العنوان المدون كما يلي :

الديـوان المغـرب في أقـوال عـرب إفريقيـا والمغـرب

جمعـه الفقيـر إلى ربـه الراجـي عفو ذنوبـه

ويستشف أيضا من كونه مديرا للمدرسة الكتانيــة بقسنطينة. لكن لم نجد مرجعا يتحدث عن اعتقاده الدينـــــي.

- اختار لغلاف الكتاب طرازا إسلاميا عبارة عن مدخل مسجد على شكل اسطانين فوقهما قوس، واختار لهذا الشكل اللون الأخضر تيمنا برمز شعارات الحركة الصوفية .
- طبع الكتاب أول مرة على يد توستار عام 1902م.
- يحتوي الكتاب على 117 قصيدة متنوعة الأغراض والموضوعات، 43 قصيدة لشعراء من الجزائر- 12 قصيدة لشعراء من تونس- 08 قصائد لشعراء من المغرب- قصيدة واحدة لشاعر من ليبيا- 53 قصيدة مجهولة المؤلف معظمها من التراث الشعبي الجزائري
- وقسم الكتاب إلى :

أ- الديوان ويظم القصائد المكتوبة بالعربية.

ب- ترجمة هذا الديوان إلى اللغة الفرنسية.

ت- الدراســة.

---

[1]- ينظر: المصدر نفسه، ص: 179.

ويضع الهوامش باللغة الفرنسية و يكتب الكلمات العربية بالرسم اللاتيني (فرنسية) ويشرح الكلمات العربية بالفرنسية بعد نهاية كل قصيدة.

- يقدم ترجمات قصيرة لكل شاعر باختصار غير مخل، والمكان الذي يعيش فيه في فهرس القصائد .
- عدد الشعراء في الديوان ما ينيف عن 50 شاعرا وبقية القصائد لشعراء مجهولين أو أغاني و أهازيج شعبية.
- أورد بعض القصائد القبيحة والذميمة التي تخدش الحياء مجهولة المؤلف التي بلغت من الشناعة والعيب ما يجعلني أتحرج من ذكرها مثل القصائد رقم 113 و رقم 114 و رقم 115 و رقم 116 وعناوينها كالآتي :

تبت اغزاله يالكيلاني – مشينا لطريق سطيف – أنا البارح كنت جاي – ياولاء الله يا إبني بجور ياغزالي .

- في بعض الأحيان يذكر القصيدة ولا يذكر صاحبها عمدا كما في القصيدة رقم 35، التي عنوانها " راني في جبال قرصة عاليين" ويذكر العبارة التالية : " شعر لأحد لافائدة في ذكر اسمه". ولم أعرف سبب ذلك.
- ختم الديوان بقصيدة في الضحك تعج بألفاظ فرنسية.

مصادر سونك في الجمع والتدوين :

1) **الشاعر الشعبي** : المورد الأول الذي استقى منه المادة الشعرية الممثلة في القصائد وهو المعين الذي لا ينضب، فالشاعر الشعبي هو حامل الإبداع الذي يمتاح منه الثقافة الشعبية في لغتها وصورها وفنياتها، فيأخذ من أفكاره واعتقاده في الكلمة وفاعليتها ونفوذها على حد تعبير النهشلي ((قالت العرب لا ينبغي لعاقل أن يتعرض لشاعر، فربما كلمة جرت على لسانه فصارت مثلا آخر الأبد)) [11] فقد عبر الشاعر الشعبي بلغته وخطابه،

[1]- النهشلي أبو محمد عبد الكريم بن ابراهيم، الممتع في علم الشعر وعمله، الدار العربية للكتاب، تونس، 1977م، ص: 279.

ووقف ينشَط الوجدان فنيا و أدبيا، ويخوض في جميع الأغراض و الموضوعات التي مكنته من التعبير عن ذاته وعن خلجات مجتمعه و لواعجه، وتمكنه من التفنن في إلقاء قصائده و التدرج بها إلى مرتبة تستشرف التطور في القول، ويظهر ذلك في الإرتجال وقوة تأثيره في المتلقين، مما يعكس ما كان عليه في كل المستويات مراعيا اللغة التي يفهمها الناس، ومن هنا كان الشعر الشعبي بلغة الناس التي أخذبعضها سونك من أفواه الشعراء مباشرة أو بطريقة غير مباشرة.

2) **الراوي الشعبي** : هو ذلك الشخص الذي يتمتع بمواهب فيزيولوجية وقدرات خلاقة وحافظة خصبة، تتعلق بالهيئة والملامح والأدوات الفنية في تقديمه الرواية الشعرية أو القصصية ، بالإضافة إلى قوة ذاكرته في الحفظ و جرأته وقدرته على الاطلاع والإبداع، لأن هذه القدرات تلعب دورا في جذب انتباه الجمهور من سامعيه لدمجهم في الجو الذي تثيره روايته، والجمهور يقدر كل هذه الإمكانات والقدرات وذلك بتجاوبه

معه ((ويحظى الكبار من الرواة باحترام خاص يحيطهم به أفراد الجماعة وتكون تجربتهم وممارساتهم لفن

الرواية لعشرات السنين مدعاة اعتزازهم ومحط تقدير من طرف الجماعة))[1] ، والراوي شخص يقصده

الناس للاستماع إليه والاستفادة من ثقافته الشعرية والقصصية.

وربما يكون سونك قد استعان ببعض الرواة في الجمع أو التصويب والتصحيح، لأن هذا الشخصية يعد

بمثابة المرجع للمرويات الشعبية التاريخية أو الإبداعية ..... إلخ..

[1]- عبد الحميد بورايو، البطل الملحمي و البطلة الضحية في الأدب الشفوي الجزائري، دراسات حول خطاب المرويات الشفوية، الأداء – الشكل– الدلالة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1998م، ص: 14.

3) **المداح الشعبي :** يشبه الراوي من حيث ثقافته الشعبية شعرا وقصصا. إلا أنه يمتهن هذه الموهبة ويتعاطاها في الأسواق والمجتمعات الشعبية والمجالس والمقاهي التي يبث فيها مقدرته على الأداء، انطلاقا من حصيلته التراثية ومواهبه الفيزيولوجية المتعلقة بهيئته وصوته وملامحه وسيطرته على أدواته الفنية في عمله الفني ويتغنى بشعر أكبر الشعراء الشعبيين، مستعينا بآلة عزف أو طبل أو آلة موسيقية.

وحينما يستقطب اهتمام مستمعيه يسرد لهم قصة أثناء الغناء وغالبا ما تكون دينية تحكـــــي عن قضايـا

الإسلام أو بطولات الصحابة أو المغازي أو كرامات الأولياء والصالحين أو قصص الأنبياء ..... ويحاول

أن يتقمص أدوار الأشخاص فيظهر ذلك على تقاسيم وجهه وحركة جسمه، ومن خلال نبرته الصوتية،

ويتخذ المداح أكثر من لهجة ويوظف الألفاظ الأجنبية في بعض المواضيع ويضرب الأمثال ويسقطها

على الواقع المعيش للمواطن لإمالته وتشويقه، ويتخذ من هذه الموهبة مهنة يسترزق منها ويطلب مبلغا ماليا

لأجل ذلك.

والمداح يسمى القوال في بعض مناطق الجزائر وهو((مرادف للمداح غير أنه يطلق على رواة

الشعر الشعبي الغنائي))[1] ولا غرو في أن سونك لجأ إلى بعض المداحين وسجل منهم بعض القصائد التي

ملأت الأسواق وشغلت الجمهور.

[1]- المرجع نفسه، ص: 11.

4) **هواة جمع الشعر الشعبي** : من خلال التعليق الذي قدمه الباحث أحمد أمين للكتاب و الذي مفاده:

((والباحث لم يتصل بالشاعر وإنما نقل القصيدة من كراس أحد الهواة دون أن يحقق معه في أصل الشاعر أو من أي مكان هو))[1] نستنتج من هذا القول أن سونك كان يعتمد في جمع النصوص الشعرية أو القصائد على الهواة الذين يسجلون القصائد الشعبية في كراساتهم. وهذا ما جعله يقع في خلط أثناء ذكر ترجمة شاعر ما مثلما وقع له في ترجمة محمد بن قيطون وبن يوسف بن محمد، فوجود المادة الشعرية حدا دون التدقيق في أصل الشاعرين، دون أن يتعب نفسه في البحث والتحري عن بعض ما يتصل بالشاعرين وبأخبارهما. والقضية الثانية توحي بأن هؤلاء الهواة يحبون وطنهم ويعشقون تراثهم الشعري فراحوا يدونونه في كراسات.

الخاتمة:

نصل الآن لنلخص أهم النتائج المتوصل إليها و الملاحظات المستنتجة

- إن أغلب المستشرقين اهتموا بقضايا اللغة العربية وآدابها، وقلة اهتموا بالأدب الشعبي، منهم من كتب عن القصص الشعبية المغاربية ومنهم من جمع الأشعار الشعبية .
- كان لسونك الفضل في جمع مجموعة لا يستهان بها من الشعر الشعبي في جميع الأغراض والموضوعات، وبهذا يكون قد انتشل جزء هاما من التراث الشعبي من الضياع . ولولاه لما وصلتنا هذه القصائد .
- كتاب سونك يقدم المادة الشعرية متمثلة في القصائد الشعبية ولا يقدم دراسة وافية. إلا بعض الشروح المحدودة .

[1]– سونك، الديوان، مصدر سابق، ص: VII.

- عرَفنا سونك على العديد من فحول الشعر الشعبي بعد أن أضحت أشباح النسيان و الانقراض تهددهم.
- إن كتاب سونك يعتبر معلّمة تأرخ لتاريخ الشعر الشعبي المغاربي، بالأخص الشعر الشعبي الجزائري منذ القرن السادس عشر إلى أواخر القرن التاسع عشر.
- لغة القصائد الموجودة في الديوان تجمع بين الألفاظ ذات الأصل العربي في شكلها ومعناها، وحافظت على مبناها ومعناها. وألفاظ عربية في شكلها ومعناها وطرأ عليها تغير في النطق، أي في الجانب الصوتي تعرف أثناء الإلقاء أو الإنشاد. وألفاظ عامية مبتذلة وكلمات دارجة، ثم ألفاظ ذات أصل أجنبي أكثرها فرنسي وبعضها تركي، وهي قليلة ومجالها محدود، ولا أثر للألفاظ الأمازيغية .
- الصور الموجودة في القصائد مستمدة من البيئة المرئية وما يحيط بالشاعر الشعبي وما يعتقده ويحسه، لتشكيل المعنى وانتقاء اللفظ المناسب للموقف، ورسم الحالة الشعورية التي تناسب التجربة، بالاعتماد على التلقائية والارتجال و الإنشاد .

هذه بعض الملاحظات التي استقرئتها من ديوان سونك، ولا أدعي الإلمام بكل ما فيه، و أعترف أن ثمة ملاحظات قد غابت عني ولم أتوصل إلى أكثر من هذه القراءة البسيطة، وهي دعوة إلى المختصين والدارسين لإعادة قراءة هذا الديوان و اكتشاف ما فيه.

قائمة المصادر :

1- سونك، الديوان المغرب في أقوال عرب افريقية و المغرب، مطبعة توستار، 1902م.
2- سونك، الديوان المغرب في أقوال عرب افريقية و المغرب، تقديم أحمد أمين، سلسلة الأنيس، طبع المؤسسة الوطنية للفنون، الجزائر، 1994م.

قائمة المراجع :

3- ادوارد سعيد، الاستشراق، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 1991م.

4- دانيال ريغ، رجل الاستشراق، مسارات اللغة العربية في فرنسا، ترجمة ابراهيم صحراوي، دار التنوير، الجزائر، 2008م.
5- زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي، طبقات الصوفية، الطبقات الكبرى، الجزء الأول، القسم الأول، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1994م.
6- عبد الحميد بورايو، البطل الملحمي و البطلة الضحية في الأدب الشفوي الجزائري، دراسات حول خطاب المرويات الشفوية، الأداء، الشكل، الدلالة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998م.
7- عبد الحميد بورايو،الأدب الشعبي الجزائري، دار قصبة، الجزائر، 2007م.
8- عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1984م.
9- محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي، موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، الجزء الثاني، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر، دت.
10- محمد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية و الممارسة الشعرية، دار افريقيا الشرق، المغرب، 2001م.
11- الطيب بن ابراهيم، الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، دار المنابع، الجزائر، 2004م.
12- النهشلي أبو محمد عبد الكريم بن ابراهيم، الممتع في علم الشعر وعمله، الدار العربية للكتاب، تونس، 1977م.